254150 - شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على من يموت من أهل الكتاب

السؤال

اليهودي واليهودية اللذان حكم عليهما الرسول صلى الله عليه وسلم بالرجم، بعد أن جاء إليه اليهود ، الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أنهما سيذهبان إلى النار الأبدية دون أن يحزن عليهما ، ويسألهما أن يصبحا مسلمين .

الإجابة المفصلة

لا يملك أحد دليلا يثبت به أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحزن لحال هذين اليهوديين المرجومين، أو لم يشفق عليهما، أو يتأسف لحالهما، بل الأدلة المتكاثرة من القرآن الكريم والسنة المطهرة تدل على خلاف ذلك، وتدل على أن صاحب القلب الرحيم عليه الصلاة والسلام كاد يهلك نفسه "أسىً"، و "أسفًا"، و "حزنًا"، و"حسراتٍ"، بل "شقاءً" ؛ على إعراض المعرضين، واستكبار المعاندين، يرجو أن يأخذ بحُجَزهم عن النار، وهم يأبون إلا تقحمها.

وهذه المفردات البالغة الغاية في التعبير عن صدق رحمته عليه الصلاة والسلام، كلها وردت في القرآن الكريم.

تأمل معنا قول الله عز وجل: (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) فاطر/ 8 .

يقول العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله:

"جُمعت الحسرات – مع أن اسم الجنس صالح للدلالة على تكرار الأفراد – قصدا للتنبيه على إرادة أفراد كثيرة من جنس الحسرة ؛ لأن تلف النفس يكون عند تعاقب الحسرات ، الواحدة تلو الأخرى، لدوام المتحسر منه، فكل تحسر يترك حزازة وكمدا في النفس، حتى يبلغ إلى الحد الذي لا تطيقه النفس، فينفطر له القلب، فإنه قد علم في الطب أن الموت من شدة الألم ، كالضرب المبرح وقطع الأعضاء ، سببه اختلال حركة القلب من توارد الآلام عليه" .

انتهى من "التحرير والتنوير" (22/266).

ومثله قوله تعالى: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) الكهف/ 6.

وقوله سبحانه: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) الشعراء/ 3.

وقول الله جل وعلا: (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ
لِلْمُؤْمِنِينَ) الحجر/88.
وقوله تعالى: (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) النحل/ 127، وأيضا: (وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) النمل/ 70، وأيضا: (وَمَنْ
كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا
عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) لقمان/ 23.
وقوله سبحانه: (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ) الأنعام/ 35.
وهو أحد أوجه تفسير قوله جل وعلا: (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)
طه/ 2 .
ينظر : "أضواء البيان" للشنقيطي (4/4) ، "التحرير والتنوير" لابن عاشور" (16/185) .

فإذا كانت هذه مشاعرَ نبينا صلى الله عليه وسلم تجاه المشركين الوثنيين عبدة الأصنام، الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات في مكة، وآذوه كل أنواع الأذى، وحاربوه وناصبوه العداء وقتلوا من المسلمين ما الله به عليم، ومع ذلك يرجو الله تعالى لهم الهداية وصلاح الحال، ويتقطع قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام حسرة عليهم، وكأنه يبحث عن وسيلة يهدي بها قلوبهم، ويؤثّر بها على عزائم إرادتهم الخفية، فذكره ربه عز وجل بأنه لا يملك لذلك سبيلا، فقال سبحانه: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ
أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ) القصص/ 56 ؛ فأنى يذهب بك الخيال ، وتتخطفك الوساوس والشبهات في ذلك المقام السني ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك أيضا حضه القرآن الكريم على تجنب كل هذا الأسى القلبي الذي كان يصيبه، كي تستمر دعوته، ويترك شأن الله لله عز وجل.
يقول تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا
التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا
وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) المائدة/68 .
وقد بلغ من شفقته عليه الصلاة والسلام على المنافقين أنه حرص على الاستغفار لهم، والصلاة عليهم، رغم نهي الله عز وجل له، ولكنه عليه الصلاة والسلام تأول النهي تغليبا لجانب الرحمة والشفقة، كما ثبت عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ، أَنَّهُ قَالَ: " لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ

سَلُولَ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: (أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ) ، فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: (إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا) ، قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى نَزَلَتِ الآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةٌ: (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا) [التوبة: 84] إِلَى قَوْلِهِ (وَهُمْ فَاسِقُونَ) [التوبة: 84] قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ " رواه البخاري (1366) ، ومسلم (2400) .

ولكن من المعلوم أن الرواة لم ينقلوا كل شيء، ولم يتحدثوا بجميع التفاصيل المتعلقة بالحوادث والمجريات، وإنما كان الراوي يسوق الخبر مركزا على جانب خاص، ومسلطا الضوء على المقصد الذي يريد، كما وقع في حديث رجم هذين الزانيين، كانت الرواية متجهة بكليتها للحديث عن تحاكم اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنكارهم آية الرجم في التوراة، وكشفها بعد ذلك.

أما التفاصيل الأخرى – وهي الأكثر والأطول –، مثل حكاية هذين اليهوديين، وطريقة إثبات زناهما، وهيئة إقامة الحد عليهما، والآثار الاجتماعية والنفسية والتربوية الناتجة عن حادثتهما في المجتمع المدني، وغيرها من الأمور، كلها أغفلت في الرواية .

كما سكت الرواة – كذلك – عن مشاعر النبي صلى الله عليه وسلم تجاههما .

فبأي شيء يجزم القائل : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم تنله الشفقة عليهما ؟!

ألأجل أن الرواة قد سكتوا عن نقله ؟ فقد علمنا أن هذا لا يصلح دليلا .

أم لأجل ما علم من سيرته ، وخلقه صلى الله عليه وسلم ؟ وقد علمنا أنه الرحمة المهداة إلى الناس جميعا ، كما وصفه ربه : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) الأنبياء/107 .

ثم لأي شيء تطلب الأسى على هذا الشخص المعين ، أو في موقف معين ، وأنت لم تعلم شيئا عن عناده ، وعتوه واستكباره عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإصراره على كفره ؛ ومن المعلوم أن أهل المدينة ، خاصة : قد بلغتهم رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بين أظهرهم ، أعظم مما بلغت غيرهم ، وقامت عليهم الحجة به أعظم قيام ، وبانت لهم المحجة أعظم بيان ؛ فأي شيء تريد بعد ذلك من الدعوة يا عبد الله ؟!

وتأمل قول الله تعالى لنبيه : (يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) المائدة/ 41 ، وقوله تعالى أيضا : (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) المائدة/68 ؛ لتعلم أين تذهب بك الوساوس بعيدا عن مقام الإنصاف ، وتوقير رسول الله صلى الله عليه وسلم حق توقيره ، وإجلاله حق إجلاله ، بل تبعد بك كثيرا عن مراد الله من نبيه، وأدبه له صلى الله عليه وسلم .

ثم تأمل ذلك المقام السني لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف فرحه بنجاة نفس من النار :

روى البخاري (1356) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: (أَسْلِمْ)، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: (الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ) .

والله أعلم.